والمظاهر النفسية التي يبدو فيها الانسان ليست عبارة عن صفات ممدة إعداداً سابقاً بالنسبة إلينا وإنما هي طريقة من طرائقنا في العمل والحركة داخل نطاق الوجود . فليس هناك ألصق بمماشنا ولا أكثر ظهوراً في حياتنا من صفات الحس والذكاء والغضب والحيوية، ومع ذلك فهذه كلها ليست ضرورة من ضرورات وجودنا بقدر ماهي وسيلة من وسائل اكتشافنا للوجود ونحو من أنحاء انتقالنا من الحاضر إلى الماضي .

فوجودنا إذن يحصل ثم نجعل نحن من هذا الوجود موضوعاً للكلام فنستخلص منه صفات معينة ونلاحظ عليه ملامح بالذات. هذه الصفات وتلك الملامح هي ماتسميه بالماهية . ولكننا مع كثرة التكرار والترديد للمظاهر المتشابهة في حياتنا حسبنا هذه الماهية أزلية تنقض على طول الزمن في صورة أشكال من هذا الطراز أو ذاك . ولكن الواقع أن هذه الأشياء إنما تحدث في كل مرة لأول مرة وتأتي مع اطراد الأحداث بغير تقدير ممهد ولا خطة قبلية . وبذلك ينمحي طابع الجمود والترديد في الحياة ويتدخل عنصر الفن بشياته المتباينة . ولا شك أن الفنان وحده هو الذي يستطيع أن يدرك مدى الرهبة التي تصيب الانسان في تقدمه خلال السحب القائمة من فوقه وهي لاتفتأ تنذره من حين إلى حين بالطر الغزر . فالانسان وسط الحياة ليس غريباً عن مثل هذا الموقف عندما يحس في قرارة نفسه بأنه متروك في الوحدة المفزعة بغير سند إلا من اختياره ورأيه وهواه .

ومن هنا تتدخل المسئولية في اعتبار الوجودية . وذلك طبيعي جداً مادام مرجع الانسان في معاشه إلى ذاته وما دام هو نفسه ابن نفسه ووليد أفعاله . ويقول سارتر « عندما نقول عن الانسان انه مسئول عن نفسه ، لسنا نعني أن الانسان مسئول عن شخصيته المحددة ولكننا نعني أنه مسئول عن كل الناس . » وهذه هي النتيجة الطبيعية لما سبق أن قلناه . فالانسان تبعاً لما يأتيه في وجوده من الأفعال الحرة مسئول عن العالم وعن نفسه طالما كان طريقة من طرق الوجود ، وأنموذجاً من نماذج الكينونة والمسئولية هنا مأخوذة بمعناها العادي في الشعور بأنه الفرد يؤلف لحادثة أو لموضوع من غير اعتراض عليه ومن غير تعد على حريته . فما يحدث لي — كما يقول سارتر ... يحدث لي عن نفسي ويستحيل أن يجري في الارض فعل غير انساني مهما كان الأمر . والمسئولية تأتي من هذه الناحية ، ناحية الانسانية التي تتصف بها الأفعال والوقائع وماجريات الأمور ، ومن هنا لم يكن هناك محل للاعتذار أو الأسف أو الشكوى بعد إتيان أمر من الأمور

إن فلسفة في الأخلاق على هذا النحو لاتغلق الباب أمام الرجاء ولا تصدر عن اليأس كما قال الكثيرون عنها ، وانما على العكس من هذا توجد فسحة للأمل وتضع غير قليل من الايمان والقوة في نفس الانسان كيما يفعل وكيما يأتي فعله عن عقيدة وحساب ويكفي أن يعلم الانسان من نفسه بأنه حر وأنه بهذه الحرية يقرر وجوده الخاص كما يحقق وجود الانسانية جمعاء ، وأنه يبدأ من لاشيء ليصير شيئاً في النهاية ؛ حتى يدرك خطورة موقفه وحتى يعمل بكل قواه في العالم المضطرب الغامض من أجل الوقوف على بر السلام والوصول الى أرض البراءة والخلاص

عبد الفتاح الديدي

موازنة أدبيـــة

بين قصيدتين من عيون الشعر الجاهلي

الاستاذ عبد المنعم خفاجي

١ — أما الأولى فهي معلقة : عمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر الجاهلي المشهور (٥٠٠ ـ ٦٠٠ م) . ومطلعها .

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وأما الثانية فهي مجمهرة أمية بن أبي الصلت :

عرفت الدار قد أقوت سنينا لزينب إذ تحل بها قطينا

٢ — والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لقبيلة الشاعر ، وملاحمها الحربية التي انتصرت فيها على أعدائها ، وهي فريدة في نوعها فهي جديرة حقا أن تسمى ملحمة فهي تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ومنها يوم خزاز

الذى انتصر فيه كليب قائد النزاريين على اليمنيين ، وفيها تهديد لأعداء تغلب وتنبيه للملك عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٦٢ — ٥٧٩ م) حتى لا يطيع بهم الوشاة أو يتحيز لبكر شقيقة تغلب ومزاحمتها فى المجد والنفوذ والسلطان ، وقد بدأها الشاعر بوصف الخمر مما يعد ميزة فريدة لها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر ، وختمها بقوله :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

وأنت تعلم أن عمرو بن كلثوم ارتجل بعض معلقته أمام الملك عمرو بن هند وهو الجزء الذى هدد فيه أعداء تغلب وحذر الملك من الاستماع للوشاة والميل معهم على قومه ، ومنه :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا

ثم أكمل القصيدة كلها ، وأنشدها فى سوق عكاظ ، وقد عدتها تغلب سجل مجدها وفخارها فاعتزت بها اعتزازا كثيرا ويقال إنها أضافت اليها الكثير حتى بلغت أبياتها نحو ألف بيت وقال بعض شعراء بكر فيها :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يالرجال لفخر غير مسؤوم

وأما مجهرة أمية فقد تحدث فيها الشاعر عن مجد قبيلته « ثقيف » وهى من أمهات القبائل العربية وصاحبة النفوذ والسلطان فى الطائف بين قبائلها ، ولم يبدأها بوصف الخمر كما فعل عمرو بن كلثوم بل بدأها كما يبدأ الشعراء قصائدهم فذكر أطلال محبوبته « زينب » وعفاءها ولعب الرياح المصرات بها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة نفسها وهو الفخر بمجد القبيلة وشرف الآباء فقال فيما قال :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البنينا
وكنا حيثما علمت معد أقمنا حيث ساروا هاربينا
وتخبرك القبائل من معد إذا هدوا سعاية أولينا
بأنا النازلون بكل ثغر وأنا الضاربون إذا لقينا

إلى آخر ماذكره من الفخر بأسرته وقومه ومجدهم ومناقبهم وما أرصدوه لريب الدهر من الخيل والرماح والسيوف والشيب المجربين والشبان والأقوياء ، ووراثتهم للمجد عن كبرى نزار الى غير ذلك من مظاهر الكبرياء والعزة والسيادة التى أضافها أمية الى قومه ، ولا ندرى شيئا عن التاريخ الأدبى للقصيدة وان كنا نرجح أن الشاعر نظمها فى مفاخرة من هذه المفاخرات التى تحدث كثيرا بين القبائل العربية وخاصة فى العصر الجاهلى :

٣ — تتفق القصيدتان فى الموضوع والوزن والقافية ، وفى حيالهما المعنى الغالب على القصيدتين وتتفقان كذلك فى هذه المبالغة الواضحة فى الفخر ، مما لا يؤثر نظيرها من المبالغات فى معانى الشعر الجاهلى الا قليلا.

كما تتشابهان فى هذه السهولة الفنية الغالبة على القصيدتين وخاصة عند ما ينتقل الشاعران الى الغرض الأصلى من قصيدتيهما وهو الفخر. وليست هذه السهولة الفنية بغريبة على الشاعرين ، فارتجال عمرو لقصيدته ومواقف الفخر فيها مما يقتضى السهولة ، ونشأة أمية فى الطائف ذات الخصب والزروع والثمار والهواء المعتدل والجو الجميل وتنقله فى رحلاته التجارية بين الشام واليمن وثقافته العامة وقراءته فى الكتب السماوية، كل ذلك رقق من طبعه وهذب من أسلوبه وأكسبه مواهب فنية ممتازة وصقل من ملكاته الأدبية فظهر أثر ذلك فى شعره وضوحا وسهولة وانسجاما.

وتتفق القصيدتان فوق ذلك فى كثير من معانى الشعر وأساليب الفخر؛ ومن مظاهر ذلك الاتفاق هذه المعانى والأساليب والأبيات :

١ — قال عمرو :

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا

أى حتى يظهر الشرف لنا . وقال :

ورثنا مجد علقمة بن سيف .

وقال وهو يتحدث عن الخيول الكريمة التى يخوض قومه عليها المعارك :

ورثناهن عن آباء صدق وورثها إذا متنا بنينا.

فقال أمية :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البنينا

ونستطيع أن نوازن بين البيتين الأخيرين إذا علمنا أن وراثة المجد فى بيت أمية أبلغ فى الفخر من وراثة الخيل فى بيت عمرو ، وإن كانت وراثة الخيول من أسباب المجد لأن الخيل وركوبها واتخاذها عتاداً دليل الشجاعة والبطولة وحب النضال، وقول أمية « فأورثنا مآثرنا البنينا » أبلغ من قول عمرو : « ونورثها إذا متنا بنينا » لأن أمية ذكر أن أبناءهم ورثوا مجد الآباء فى حياتهم ، أما عمرو فذكر أن الأبناء سيرثون هذه الخيول بعد وفاة آبائهم ، فلم يسند إليهم الشجاعة والبطولة وحماية الذمار فى حياة الآباء ، وهذا قصور فى الفخر . وقال أمية « البنينا » وقال عمرو : « بنينا » فشهرهم أمية وأبان عن وضوحهم ، وقال عمرو : « آباء صدق » فدل على شجاعتهم أو وضوح نسبهم وطهارة أعراقهم ، وهى زيادة لا نظير لها فى قول أمية .

وقد أخذ أمية لفظ « قد علمت معد » من قول عمرو فقال:

وكنا حيثما علمت معد أقمنا حيث ساروا هاربينا

ب — ويقول عمرو : « وأنا المهلكون إذا ابتلينا » أى نهلك أعداءنا ونبيدهم إذا اختبرنا بقتال الأعداء ، فيقول أمية : «وأنا الضاربون إذا لقينا» فتجد قول عمرو أبلغ حيث نصّ على إهلاك الأعداء ولم يذكر أمية إلا الضرب ، وإن كان يكنى به عن الشجاعة والإقدام والعزيمة والجد فى طلب الأعداء ، ولكنه على أى حال لم يصور نتيجة الحرب كما صورها عمرو بن كلثوم بقوله « المهلكون » .

ج — ويقول عمرو : « وأنا الآمنون لما أردنا » ، ويروى « الحاكمون بما أردنا » ، فيقول أمية:« وأنا الآمنون إذا أردنا »

د — ويقول عمرو :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

ويروى من مجهرة أمية :

وأنا الشاربون الماء صفوا « « « «

هـ — ويقول عمرو :

بفتيان يرون القتل مجداً وشيب فى الحروب مجربينا

وقد روى من المجمهرة :

وفتياناً يرون القتل مجداً وشيباً فى الحروب مجربينا

٤ — ومعلقة عمرو تمتاز بأنها الأصل الذى نسج على منواله أمية ؛ كما تمتاز : بتنوع أغراضها ، وبطولها، وأنها ملحمة تاريخية نادرة ، وهى إحدى المعلقات السبع وهى قصائد تحتل الذروة فى الشعر الجاهلى. وقد انتخبت من بين القصائد الجاهلية لشهرتها وخصائصها الفنية والأدبية الممتازة. وقال بن قتيبة فى قصيدة عمرو: وهى من جيد شعر العرب :

أما قصيدة أمية فلا تبلغ إلا نحو الثلاثين بيتاً أو تزيد قليلا فهى نحو ثلث قصيدة عمرو ، وقد وضعها النقاد مع المجمهرات والمجمهرات سبع قصائد من الشعر الجاهلى رواها أبو زيد الأنصارى فى « الجمهرة » ، وأصحابها هم :

ا — عبيد بن الأبرص ، ومجهرته مشهورة وهى فى الحكمة ومطلعها .

عيناك دمعهما سروبُ كأن شآنيهما شعوب

والسروب : الكثيرة الجريان . والشعيب : المزادة ، وتشتهر باضطراب وزنها ؛ ومنها :

والمرء ما عاش فى تكذيب طول الحياة له تعذيب

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

ب — عدى بن زيد ، ومجهرته فى الحكمة ومطلعها :

أتعرف رسم الدار من أم معبد نعم ورماك الشوق قبل التجلد

وهى شبيهة بمعلقة طرفة فى وزنها وقافيتها وحكمتها ، وتتفق معها فى بعض الأبيات مثل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

ج — النمر بن تولب ، ومجهرته فى الحكمة أيضاً ومطلعها :

« تأبد من أطلال عمرة مأسل »

د — أمية بن أبى الصلت ، ومجهرته موضع الحديث ، وهى فى الفخر .

هـ — بشر بن أبى خازم، ومجهرته فى الفخر بقومه وبطولتهم وعزمهم ومطلعها :

لمن الديار غشيتها بالأنعم ؟ تعدو مطالها كلون الأرقم

و — خداش بن زهير ، ومجهرته فى الفخر بقومه أيضاً ، ومطلعها :

« أمن رسم أطلال بتوضح كالسطر »

ز — عنترة، وقصيدته :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

يعدها بعض النقاد من المعلقات والآخرون من المجمهرات .

وهـــذه القصائد السبع لم توضع فى مرتبة واحدة لاتفاق موضوعاتها ؛ إذ ان موضوعاتها مختلفة : فثلاث منها فى الحكمة وأربع فى الفخر ، كما أنها لم ترتب بالنظر إلى الناحية التاريخية ، إذ أن أصحابها لم يعيشوا فى عصر واحد :

فعدى توفى نحو عام ٥٨٠ م ، وعبيد عام ٥٥٥ ، وأمية عام ٦٢٤ م ، وعنترة عام ٦١٥ م الخ ؛ فهى إذاً إنما وضعت فى منزلة أدبية واحدة تلى منزلة المعلقات الأدبية بالنظر إلى خصائصها الفنية الأدبية وحدها ، ويكاد الناقد الأدبى يقف أمام تشابه شاعرية هـؤلاء الشعراء وخصائص الشاعرية فى هذه القصائد ؛ فهـذه القصائد السبع إذاً يشبه بعضها بعضاً فى النواحى الفنية والفطرة الأدبية وفى خصائص الشعر والشاعرية وتـكاد تـكون متساوية فى حكم النقد الأدبى ، وهى على أى حال تلى المعلقات فى الجودة والمـكانة الأدبية .

ونستخلص من ذلك كله أن النقاد لاحظوا الفروق الفنية الكبيرة بين القصيدتين فوضعوا الأولى فى صف المعلقات والثانية مع المجمهرات، وفى الحق أن شاعرية عمرو فى معلقته أقوى وأبين من شاعرية أمية فى مجمهرته : سواء فى الأسلوب أو المعانى أو الأغراض أو مدى الجودة الفنية ومواهب الشعر .

٥ — ويرى الدكتور طه حسين فى كتابه «الأدب الجاهلى» أنه لا يمكن أن تـكون معلقة عمرو أو أكثرها جاهلية . وقد شك الرواة فى بعضها ويرجح أن تـكون المعلقة منتحلة، ونحن لا نذهب هذا المذهب ، فالمعلقة تمثل حياة جاهلية لقبيلة تغلب وتمثل شاعراً جاهلياً وتصور حياة عمرو الفنية والاجتماعية نفسها وهى شبيهة بالآثار الباقية من شعر عمرو ، وإن كان هذا لا ينفى أن تـكون قد زيدت عليها بعض الأبيات ؛ وقصيدة أمية نفسها تؤيد أن قصيدة عمرو جاهلية وأنها لم تنتحل بعد الإسلام على أيدى الرواة .

ونلاحظ على مجمهرة أميـة خلوها من الصبغة الدينية التى اشتهر بها أمية ، ويبدو أنه نظمها فى شبابه قبل أن يقف نفسه وحياته وشعره على الجانب الدينى وحده . وتقليده فيها لعمرو بن كلثوم يؤكد ذلك وأنها نظمت قبل أن تكتمل شخصية أمية الفنية . وقد يكون السبب الذى جعل أمية ينظم مجمهرته محتذيا فيها عمراً هو إعجابه بمعلقته أو روايته لشعره أو تشابه موقف الفخر الذى وقفه الشاعران ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن الرواة أدخلوا على مجمهرة أمية بعض الأبيات من معلقة عمرو لتشابه الوزن والقافية والخيال والموضوع فى القصيدتين ؛ ذلك لأن مجمهرة أمية ليست طويلة ولأنه إذا حذف منهـا الأبيـات المتشابهة لا يبقى منها فى مقام الفخر إلا القليل من أبياتها ، ولا يعقل أن ينظم الشاعر قصيدة فى الفخر معانيها فيه محدودة أو شبه محدودة .

ورواية أبى زيد للقصيدتين فى كتابه دليل على إيمانه بصحة القصيدتين أولا ، وبأن المعانى المتشابهة فيهما نتيجة لاتفاق الشاعرية أو للتقليد الأدبى ثانياً ؛ وأبو زيد م ٢١٥ هـ راوية ثقة

٦ — وبعد فنستطيع أن نقول إن أمية قلد فى مجمهرته عمرو ابن كلثوم فى معلقته تقليداً فنياً واضحاً ، فأخذ من المعلقة كثيراً من معانى الفخر وأساليبه ، وصاغ قصيدته على موسيقى وقافية معلقة عمرو .

وهذا التقليد الفنى ليس بعجيب بين الشعراء فى شتى العصور وليس بغريب فى الشعر الجاهلى نفسه ، فأنت ترى أن الشاعر الجاهلى كثيراً ما يتفق مع شاعر قبله أو معاصر له فى أسلوب أو معنى أو بيت وأنت تعرف قول امرىء القيس .

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقول طرفة

و قوفا بها صحبى على مطيهم يقولون « « وتجلد

وتعرف غير ذلك من مظاهر التشابه الفنى أو التقليد الأدبى بين الشعراء الجاهليين ، مما نستطيع أن نوانيك ببحث أدبى عنه فى الغد القريب إن شاء الله

محمد عبد المنعم خفاجى
الاستاذ بكلية اللغة العربية